الباب الخامس والخمسون: في العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل فقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أفضل العمل أدومه وإن قلّ» وقال عليّ بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه: قليل مُدامٌ عليه خير من كثير مملول. وفي التوراة: حرّك يداك أفتح لك باب الرزق. وكان إبراهيم بن أدهم يسقي ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلي بالليل. وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال يا رسول ألا ماينفي عني حجة العلم؟ قال: «العمل». وعنه ﷺ أنه قال: «الكيس[1] من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني». وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل، وأنشد يقول:

وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نفسَهُ ... ففي صالحِ الأعمالِ نفسَك فاجعل

وقال بعض الحكماء: لا شيء أحسن من عقل زانه حلم، ومن عمل زانه علم، ومن حلم زانه صدق. ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له: عِظني، فقال له الولي: بلغني رحمك الله أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك، فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه وقيل: من جدّ وجد، وأنشدوا في المعنى:

إني رأيتُ وفي الأيامِ تجربةٌ ... للصبرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ
وقل من جدّ في أمرٍ يحاوله ... واستصحب الصبرَ إلا فاز بالظفرِ

وتقول العرب: فلان وثاب على الفرص. وقال بعضهم:

وإني إذا باشرتُ امراً اريدُه ... تدانَتْ أقاصِيهِ[2] وهانَ أشدُّه

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: يتبع الميت ثلاث، يرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه: أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله. وقال بعضهم: العمل سعي الأركان إلى الله والنية سعي القلوب إلى الله، والقلب ملك، والأركان جنود، ولا يحارب الملك إلاّ بالجنود، ولا الجنود إلا بالملك. وقيل: الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم، والعلم كله هباء إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص، وهذا هو العمل.

وأما الكسب: فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿**وعلَّمْنَاهُ صَنعة لبوسٍ لكم**﴾[3] أي دروع من الحديد، وذلك أن

---

(١) الكيس من دان: اللبق ذو الكياسة.
(٢) أقاصيه: تقاربتَ أباعده.
(٣) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٠.

داود عليه الصلاة والسلام كان يدور في الصحاري فإذا رأى مَنْ لا يعرفه تحدّث معه في أمر داود، فإذا سمعه عابه بشيء يصلحه من نفسه. فسمع يوماً مَنْ يقول: إني لا أجد في داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام في محرابه وتضرّع بين يدي الله تعالى، وسأله أن يعلّمَه ما يستعين به على قوته، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله في يده كالشمع، فاحترفها واستعان بها على أمره وصار يحكم منها الدروع. وقال رسول الله ﷺ: «جعل رزقي تحت رمحي» فكانت حرفته الجهاد. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحبّ العبد المحترف»[1] قال ﷺ: «إن الله تعالى يبغض العبد الصحيح الفارغ». وقال عليه الصلاة والسلام «مَنِ اكتسب قُوتَهُ ولم يسأل الناس لم يعذّبه الله تعالى يوم القيامة، ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل شيئاً وهو يجد قوت يومه، وليس عند الله أحبّ من عبد يأكل من كَسْبِ يده، إنّ الله تعالى يبغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة». وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ «مَنْ بات في طلب الحلال أصبح مغفوراً له». وعن الحسن رحمه الله: كسب الدرهم الحلال أشدّ من لقاء الزحف. وقيل لمحمد بن مهران: إنّ ههنا أقواماً يقولون نجلس في بيوتنا وتأتينا أرزاقنا، فقال: هؤلاء قوم حمقى، إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمٰن فليفعلوا. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لا يقعدّن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهمّ ارزقني، فقد علمتم أنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وقال أيضاً: إني لأرى الرجل فيعجبني، فأول ألَهُ حرفة؟ فإن قالوا لا سقط من عيني. واشترى سليمان وَسَقا من طعام وهو ستون صاعاً، فقيل له في ذلك، فقال: إنّ النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت. قال بعضهم في السعي:

خاطِرْ بنفسِك كي تصيبَ غنيمةً ... إنّ الجلوسَ معَ العيالِ قبيحُ

وقيل: إنّ أوّل مَنْ صَنَعَ لسان الميزان عبد اللّه بن عامر، وكان الناس إنما يَزِنُون بالشاهيني[2]. وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله سعّر لنا، فقال: «إنّ الله الخالق القابض المسعر الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحد يطلبني بمظلمة ظلمته بها في أهل ولا مال».

وأما ما جاء في العجز والتأني: فقد روي عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنه قال: مَنْ أطاع التواني ضيع الحقوق، ومن عجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه، وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه. قال الشاعر:

على المرء أن يسعَى ويبذلَ جهدَهُ ... ويقضِي إلهُ الخلقِ ما كان قاضياً

ومثلُه قوله:

على المرءِ أن يسعى لما فيه نفعُهُ ... وليس عليه أن يساعِدَهُ الدهر

وقيل: احذر مجالسة العاجز، فإنه مَنْ سكن إلى عاجز أعداه من عجزه وأمدّه من جزعه، وعوّده قلة الصبر، ونساه ما في العواقب، وليس للعجز ضدّ إلا الحزم، وقال بعض العلماء: من الخذلان مسامرة الأماني، ومن التوفيق بغض التواني[3]. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «باكروا في طلب الرزق والحوائج فإنّ الغدوّ[4] بركة ونجاح».

---

(١) العبد المحترف: ذو الحرفة.

(٢) الشاهيني: قصبة توضع المواد في طرفيها بعد ربطها بخيط في المنتصف تحمل منه.

(٣) التواني: الكسل.

(٤) الغدوّ: التبكير.

وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة الناس. وقال علي رضي الله تعالى عنه: التواني مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد. وقال حكيم: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير. وقال بعض الحكماء: الحركة بركة، والتواني هلكة، والكسل شؤم، وكلب طائف خير من أسد رابض، ومن لم يحترف لم يعتلف. وقيل: من العجز والتواني تنتج الفاقة. قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتين من جملة أبيات:

كأنَّ التواني أنكحَ العجزَ بنتَهُ ... وساقَ إليها حين زَوَّجَها مهرا
فِراشاً وَطيئاً ثم قالَ لها اتكي ... فإنكما لا بدَّ أن تلدا الفقرا

وقال آخر:

توكَّلْ على الرحمٰنِ في الأمرِ كلِّه ... ولا ترغبَنْ في العجزِ يوماً عن الطلبْ
ألم تَرَ أن الله قالَ لمريمَ ... وهزّي إليك الجذع يساقط الرطَبْ
فلو شاءَ أن تجنيه من غيرِ هزةٍ ... جَنَتْهُ ولكن كلُّ رزقٍ له سبَبْ

وسأل معاوية رضي الله تعالى عنه سعيد بن العاص عن المروءة، فقال: العفة والحرفة. وكان أيوب السختياني يقول: يا فتيان احترفوا فإني لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم، يعني الأمراء. وقال رجل للحسن: إني أنشر مصحفي فأقرؤه بالنهار كله. فقال: اقرأه بالغداة والعشيّ ويكون يومك في صنعتك وما لا بد منه. ومرّ رحمه الله تعالى بإسكافي فقال: يا هذا اعمل وكُلْ فإن الله يحب مَنْ يعمل ويأكل، ولا يحب من يأكل ولا يعمل، وقال أبو تمام:

اعاذِلتي ما أحسنَ الليلَ مركبا ... وأحسنُ منه في الملمَّاتِ راكبُهْ
ذَرِيني[1] وأهوالَ الزمانِ أقاسِها ... فأهوالُهُ العُظْمى تليها رغائبُهْ
أرى عاجزاً يدعي جليداً لقسمةٍ ... ولو كلِّف التقوى لكلَّتْ مضاربُهْ
وعفًّا يسمى عاجزاً بعفافِهِ ... ولولا التقى ما أعجزَتْهُ مذاهبُهْ
وليس بعجزِ المرء أخطأه الغِنى ... ولا باحتيالٍ أدركَ المالَ كاسبُهْ

وقال آخر:

فلا تركُنْ إلى كسلٍ وعجزٍ ... يُحيلُ على المقادِرِ والقضاءِ

وقال أعرابيّ: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأماني المستحيلة، ويقال: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم فيمثل له التواني في صورة التوكل ويريه الهوينا باحالته على القدر. وقال لقمان لابنه: يا بني إياك والكسلَ والضجرَ فإنك إذا كسلت لم تؤدّ حقاً، وإذا ضجرت لم تصبر على حق. قال أبو العتاهية:

إذا وَضَعَ الراعي على الأرض صدرَهُ ... فحقٌّ على المعزي بأنْ تتبدَّدَا[2]

فالتواني هو الكسل، وتضييع الحزم، وعدم القيام على مصالح النفس، وترك التسبب والاحتراف والإحالة على

(١) ذريني: دعيني.
(٢) تتبدَّدا: تتفرق.

المقادير، وهذا من أقبح الأفعال. وأما التأني فإنه خلاف التواني وهو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب، وقد قيل: من نظر في عواقب الأمور سلم من آفات الدهور. ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿ولا تعجَلْ بالقرآنِ من قبلِ أن يُقضَى إليك وَحْيُهُ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ: «من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الدنيا والآخرة». وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: «عليك بالرفق فإن الرفقَ لا يخالط شيئاً إلا زَانَهُ ولا يفارقُ شيئاً إلا شَانَهُ». وفي التوراة: الرفق رأس الحكمة. وقالوا: القعل أصله التثبت وثمرته السلامة. ووجد على سيف مكتوباً. التأني فيما لا يخاف فيه الفوت أفضلُ من العجلة في إدراك الأمل. وقال بعض الحكماء: إذا شككت فاجزم، وإذا استوضحت فاعزم. وقالوا يد الرفق تجني ثمرة السلامة، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة. وأنشدوا في ذلك:

قد يدركُ المتأني بعضَ حاجَتِهِ ... وقد يكونُ مع المستعجلِ الزللُ

وقالوا: التأني حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة. وقالوا: إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني فبماذا يدرك؟ وقال المهلب: أناة في عواقبها درك خيرٌ من عجلة في عواقبها فَوْتٌ. وقالوا: من تأنَّى نال ما تمنَّى، والرفق مفتاح النجاح. وقال بعض الحكماء: إياك والعجلة فإنها تكنى أمّ الندامة لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويحمد قبل أن يجرّب، ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب الندامة وجانب السلامة.

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها: فقد روي عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل». وكان ﷺ يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويعلف ناضحه[2]، وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان الحكيم خياطاً، وقيل: كان إدريس عليه السلام خياطاً، ووقف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على خياط فقال له: يا خياط ثكلتك الثواكل صلب الخيط، ودقق الدروز، وقارب الغروز؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه». واحذر السقطات فإنّ صاحب الثوب أحقّ بها، ولا تتخذ بها الأيادي وتطلب المكافأة. وقال فيلسوف: إنَّ من القبيح أن يتولَّى امتحان الصناع من ليس بصانع. وفي الحديث: «أكذبُ أمّتي الصوّاغون والصباغون». وكذبُ الدلال مَثَلٌ. وقالوا: لكل أحد رأس مال، ورأس مال الدلال الكذب. وقال عبد الرحمٰن بن شبل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التجار هم الفجار»، قيل: أليس الله تعالى قد أحلّ البيع؟ قال: نعم، ولكن يحدّثون فيكذبون، ويحلفون فيحنثون. وقال الفضيل: بخس الموازين سواد في الوجه يوم القيامة، وإنما أهلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا، وعطلوا الحدود، ونقصوا الكيل والميزان. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿واتّبعك الأرذَلُونَ﴾[3] قيل: هم الحاكة والأساكفة وقيل: إنّ حائكاً سأل إبراهيم الحربي ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطفاً ما الذي يجب عليه؟ فتبسم إبراهيم ثم قال: يتصدّق بدرهمين، فلما مضى قال: ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق. وقيل لرجل: هل فيكم حائك؟ قال: لا، قيل: فمن ينسج لكم ثيابكم؟ قال: كلّ منا ينسج لنفسه في بيته، وكان أردشير بن بابك لا يرتضي لمنادمته ذا صناعة رديئة، كحائك وحجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً. وقال كعب: لا تستشيروا

---

(١) سورة: طه، الآية: ١١٤.
(٢) ناضحه: بعيره.
(٣) سورة: الشعراء، الآية: ١١١.

الحاكة فإن الله تعالى سلب عقولهم، ونزع البركة من كسبهم، لأن مريم عليها السلام مرّت بجماعة من الحياكين فسألتهم عن الطريق فدلوها على غير الطريق، فقالت: نزع الله البركة من كسبكم. قال أبو العتاهية:

ألا إنما التقوى هي العزُّ والكرَمْ وحبُّك للدنيا هو الذلُّ والسقَمْ
وليسَ على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ إذا صحَّحَ التقوى وإن حاكَ أو حَجَمْ

وهذا ما أردنا سياقه في هذا الباب، والله الموفق للصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

obeikandl.com